الرائد نادر

ناصر الرباط ❖

ظنّ سامي أنه يسمع الرنينَ في المنام عندما دقّ هاتفُ شقّته في الثامنة صباحًا؛ فهو لم يعْتد استقبالَ أيّ مكالمة في النهار، ولم يعطِ رقمَ الهاتف الأرضيّ لأيٍّ من أصدقائه الذين اعتادوا الاتصالَ به على المحمول.

فتح عينيه ببطء ومدّ يدَه بتكاسلٍ إلى الهاتف، وقال بصوت فيه الكثيرُ من النعاس وبعضُ التساؤل: «ألو؟» فجاءه من الناحية الأخرى صوتٌ رجاليٌّ واثق: «صباح الخير دكتور سامي. أنا الرائد نادر من المباحث العامّة. أرغبُ في مقابلتك لكي أستفسرَ منكَ عن بعض الأمور التي أثارت اهتمامَنا. وقد أخذتُ رقم منزلك من مركز البحوث الأمريكيّ في مصر. متى يمكنكَ التفضّلُ بزيارتي؟»

باغته السؤالُ المباشر، والسائلُ، ولهجةُ السؤال الآمرة وإنْ كانت مهذّبة. واحتاج بعضَ الوقت لكي يستجمعَ أفكارَه ويجيب: «خير؟ أيوجد ما يثير اهتمامَ المباحث في حياتي في القاهرة؟» فردّ الصوتُ الواثق: «اطمئنّ يا دكتور سامي. كلُّ ما أريده منك هو بعضُ المعلومات عن حياتك ومهنتك، وهذا لن يتطلّب أكثرَ من ساعةٍ أو ساعتين. أيناسبك الأربعاء؟» «الأربعاء، بعد غد، لمَ العجلة؟» فكّر سامي، ثم أجاب: «أنا مشغول هذا الأسبوع كلّه. أيمكننا تأجيلُ اللقاء إلى الاثنين القادم؟» وأضاف مع كذبةٍ صغيرة: «لقد اتفقتُ مع بعض الأصدقاء على الذهاب في رحلةٍ إلى الصحراء البيضاء ولن نعود قبل الأحد ليلاً.» «كما تشاء،» أجاب الرائد نادر، «سأنتظركَ في مكتبي في الطابق الثاني من مبنى المباحث العامّة في لاظوغلي الساعة الحاديةَ عشرةَ ليلاً يومَ الاثنين.» «الحادية عشر ليلاً؟» شهق سامي من دون إرادته. «آسف يا دكتور سامي، ولكنْ هذه هي مواعيدُ العمل بالنسبة إلينا. آسف لذلك، ولكنْ، قل لي، أتعرف كيف تصل إليّ؟» «الحقيقة أنّي لا أعرف يا سيادة الرائد،» أجاب سامي متشوّشًا. «لا عليك، هل ستأتيني ماشيًا أمْ راكبًا؟» «بالتاكسي طبعًا!» أجاب سامي. «إذن قل له فقط مبنى المباحث العامّة في لاظوغلي، وهو سيوصلكَ إلى الباب؛ فكلُّ سائقي القاهرة يعرفون مكاتبَنا. أراكَ الاثنينَ القادم. وإذا احتجتَ شيئًا قبل ذلك، فهاكَ رقمي الخاصّ.»

❖ ❖ ❖

أمضى سامي بضع دقائق جالسًا أمام الهاتف. لماذا تريد المباحثُ العامّةُ مقابلتَه؟ ألأصله العراقيّ علاقةٌ بالأمر؟ فهو يعرف أنّ العراقيين اليوم، بمن فيهم المتجنّسون بجنسيّاتٍ غربيّة، مشبوهون في عواصم العالم العربيّ كلِّها: فهم إمّا لاجئون فارّون من بلادهم، فتَستثقل بلادُ الضيافة وجودَهم؛ وإمّا من أنصار النظام العراقيّ المحاصَر، فهم من ثمّ خطرون على الأمن والاستقرار في بلادِ هجرتِهم. ولكنْ، أصحيحٌ أنّ المتّصل رائدٌ من المباحث العامّة، أمْ أنّ تلك مزحةٌ سمجةٌ من بعض أصدقائه؟ ومَن يكون صاحبُ هذا المزاح الثقيل، وهو العراقيّ ـ الأمريكيّ المقيم في القاهرة بموجب منحةٍ أمريكيّة؟

ازدحمت الأسئلةُ في رأس سامي ووتّرتْه. غيّر ثيابَه وتوجّه إلى مركز البحوث الأمريكيّ، علّه يحصل على بعض الأجوبة. وفور وصوله ذهب لرؤية مدام سوسن؛ فهي التي ترتّب حصولَ الباحثين على الأوراق التي تطلبها السلطاتُ المصريّةُ للإقامة والعمل في مصر. ضحكتْ مدام سوسن عندما أخبرها سامي القصّةَ بصوتٍ مضطرب، مضيفًا إليها كلَّ التساؤلات التي أقلقتْه، ثم قالت:

«لا تخشَ شيئًا؛ فالرائد نادر فعلاً اتّصل بي وسألني عنك وعن رقم هاتفك وأخبرني أنه يريد أن يستفهمَ منكَ عن بعض الأشياء. وعلى الرغم من أنّ المباحث العامّة قلّما تطلب أحدًا من باحثينا للتحقيق، فلا غرابةَ في الأمر؛ فنحن في بلدٍ مهدّدٍ وتحت قانون الطوارئ، والأوضاعُ في المنطقة مضطربة وتَدفع رجالَ الأمن إلى أن يكونوا أكثرَ حذرًا. اذهبْ لرؤية الرائد ولا تخشَ شيئًا؛ فنحن لدينا اتصالاتنا مع أجهزة الدولة، ولن نعْدمَ وسيلةً لإخراجك من أيّ ورطة.»

❖ ـ كاتب سوريّ. أستاذ الآغا خان للعمارة الإسلاميّة، معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا (M.I.T).

غير أنّ عبارات سوسن، التي قصدتْ منها إزالةَ قلقه، كانت ذاتَ تأثيرٍ معاكس: فهي تعترف بأنّ طلبَ المباحث غيرُ اعتياديّ، وهي تتحدّث كأنّها تعلّم أنه في ورطةٍ ما زال يجهلها. غادر المركزَ وذهب إلى مطعمه المفضّل، فطلب طبقَه الأثير، وأتبعه بكأسٍ من النبيذ الأحمر، إلاّ أنه لم يشعرْ بأيّة لذّة. عاد إلى منزله بعد أن اشترى جرائدَ اليوم، وأمضى فترةً يقرأ أخبارَ العراق والعلاقات المصريّة ـ العراقيّة، علّه يجد في تطوّراتٍ فاتتْه تفسيرًا لاهتمام المباحث بأمره. ولمّا يئس من العثور على أيّة علامةٍ دالّةٍ رمى الجرائدَ جانبًا، وأدار التلفزيونَ إلى كلّ المحطّات، ولكنْ لا شيء غير المعتاد: حصار دوليّ لا يرحم، وجوع، وفقر، وشعبٌ يتألّم، يهاجر خيرةُ أبنائه بحثًا عن لقمة العيش وبعضِ أمان، ويقبع على أنفاسه نظامٌ بطّاشٌ لا يدري أحدٌ إلامَ سيُودي بالبلد. ملأته الأخبارُ بالأسى فوق إحساسه بمصيبته، فأغلق التلفزيون وقام إلى فراشه باكرًا علّه يرتاح بالنوم، الذي لم يأتِهِ إلاّ بعد سهادٍ وتفكّر مريرين.

❖ ❖ ❖

قضى سامي أسبوعًا عصيبًا بانتظار موعده مع الرائد نادر. ولام نفسَه لأنه لم يقبلْ دعوتَه المبكّرة التي كانت ستعفيه من هذا القلق المضنّ. لم يتمكّنْ من البحث والكتابة طوال الأسبوع، ولا من قضاء بعض الوقت مع أيٍّ من أصدقائه لانشغالهم. ولمّا جاء الاثنين وجد نفسَه عاجزًا عن الذهاب إلى أيّ مكان، فقضى اليومَ يتسكّع في بيته بلا هدف. وعند المساء أخذ حمّامًا ساخنًا طويلاً وحلق ذقنَه بعناية وصفّف شعرَه بتأنّقٍ كأنه على موعدٍ غراميّ: «فمن يدري، لعلّي لا أوفّق إلى حمّام ساخنٍ آخر لوقتٍ طويل.» ثم قضى وقتًا طويلاً يختار ما يلبسه. فكّر: «لو بالغتُ في التأنّق لأرسلتُ إشاراتِ تعالٍ وتبجّح؛ ولو لبستُ القديمَ لبدا عليّ الهوانُ والمذلّة.» ثم واتته خاطرةٌ نسيها من أيّام اعتقاله القصيرة: كانت الزنزانة التي أُلقي فيها باردةً وكالحةً، ولم تكن ثيابُه ملائمةً لأنّ يومَ اعتقاله كان صيفًا، وصيف بغداد لاهب. بعد تردّد طويل، ارتدى بذلةً صوفيّةً فوق قميص، وسترةً بلا رباطِ عنق، ولفّ حول عنقه شالاً؛ فالطقس كان باردًا نسبيّاً، على الرغم من أنّ شتاء القاهرة لطيفٌ عمومًا.

دقّت الساعةُ العاشرة والنصف فنزل إلى شارع ٢٦ يوليو. رفع يده مشيرًا إلى أوّل تاكسي قادمٍ باتجاهه. صعد إلى المقعد الخلفيّ على غير عادته؛ فهو يركب دومًا إلى جانب السائق لكي يبادله الحديثَ «مستطلعًا نبضَ الشارع،» لكنه هذه المرة لم يشأ أن يُطْلع السائقَ على توتّره. انتظره السائقُ هنيهات، ثم بادره بالسؤال: «إلى أين إنْ شاء الله يا سعادة البيه؟» فأجاب بصوتٍ خفيض: «المباحث العامّة في لاظوغلي.» «العياذُ بالله،» جاءه صوتُ السائق، «حضرتك عملت حاجة لا سمح الله؟» «خير إنْ شاء الله،» ردّ سامي باقتضاب، ولكنّ قلقَه انفجر داخله وشعر بعرقٍ باردٍ يُطلّ من أعلى جبهته، وبساقيه ترتجفان أمام ردّة فعل السائق. قبع ساكتًا يتفرّج على الناس والمحلاّت كأنها المرة الأخيرة التي يرى فيها المدينة قبل أن يُزَجّ به في غياهب السجون لذنْبٍ يجهله. وشعر بالشفقة على نفسه، ولعن يومَ عودته إلى هذه البقعة التي مازالت لا تعترف للفرد بحقوقه وتعتبره متّهمًا دائمًا بغضّ النظر عمّا فعله أو لم يفعله.

وقف التاكسي أمام مبنًى متهالكٍ بعضَ الشيء رغم ملامح عزٍّ قديمٍ في عمارته وطرازه. أخذ السائقُ أجرَه من دون أن ينظر إلى سامي، وابتعد ما إنْ سمع بابَ عربته يُقفل. تلفّت سامي حوله لكي يجد مدخلاً في سور المبنى يقف أمامه عسكريٌّ ببذلته السوداء وبندقيّته العتيقة. اقترب منه ليسأله إنْ كان هذا هو مبنى المباحث العامّة، لكنّ العسكري لم يتنظرْه بل أشار إليه بالدخول من يدٍ لم يرفعْها إلى ما فوق خصره. دخل سامي من باب الحديقة الحديديّ الأسود وصعد ثلاثَ درجات رخاميّة متآكلة ومتّسخة، ليدلفَ عبر باب ألوميتال جديد متنافر مع المبنى برمّته. دخل ردهةً مضاءةً وُضعتْ في زاوية منها طاولةٌ معدنيّة جلس وراءها شخصٌ عليه سيماءُ المباحث وإنْ كان بثيابٍ مدنيّة. اقترب منه سامي بوجل قائلاً: «أنا هنا لمقابلة الرائد نادر.» لم يرفع الرجلُ وجهَه عن الورق الذي كان أمامه، بل مدّ يدَه إلى درْجٍ نصف مفتوح وتناول قطعةً بلاستيكيّةً عليها رقم ٢٨١، مدمدمًا بصوتٍ يكاد لا يُسمع: «تفضّلْ حضرتك في الصالة.» دخل سامي

قاعةً واسعةً مضاءة بأنابيب النيون البيضاء، وشاهد أكثرَ من عشرين رجلاً من مختلف الأعمار والأشكال ينتظرون. بعضُهم واقف، وبعضُهم قاعد على المقاعد الخشبيّة المتناثرة، وبعضُهم يمشي بتثاقلٍ خطواتٍ قصارًا ليعود إلى مكانه الأول، وكثيرون يدخّنون ويملأون المكان سُحُبًا كالحة. بدا المللُ والإرهاقُ على وجوه معظم الموجودين، لا الخوفُ أو الترقّب. ولم يجد سامي لذلك تبريرًا: فهم مثله ينتظرون موعدًا مع ضابط مباحث، وفي يد كلٍّ منهم رقمٌ مثله.

كان فرّاشٌ هرمٌ يدخل الغرفةَ بين الحين والآخر وينادي رقمًا، فيقوم حاملُ الرقم ويتبعه عبر بابٍ أسودَ صغيرٍ عند طرف الصالة إلى الخارج. عندما نادى الفرّاش «٢٨١،» قام سامي بتثاقلٍ وتوجّس، وتبعه عبر الباب الأسود، الذي قاده إلى بهوٍ واسعٍ، في آخره دَرَجٌ مرمريٌّ رائع ولكنه متّربٌ ومتآكلُ الحوافّ. قال له الفرّاش: «اصعد الدرجَ وسترى اسمَ الرائد نادر على الباب الثاني من جهة اليسار.» فصعد، وتوقّف أمام باب الغرفة. طرق البابَ خفيفًا، فلم يأته أيُّ جواب. طرق ثانيةً بتصميمٍ أعلى، فخُيّل إليه أنه سمع: «ادخلْ.» فتح الباب ودخل. كانت الغرفة واسعةً ومُنارةً بشكلٍ جيّد، ووجد على يمينه مكتبًا فخمًا، وراءه شخصٌ عليه أماراتُ السلطة، وأمامه شخصان يتحدّثان معه. لم يعِره أيٌّ منهم التفاتًا. وقف ينتظر أن يتطلّع الجالسُ وراء المكتب، الذي ظنّ أنه الرائد نادر، باتجاهه. ولمّا فعل، لم يزد على أن أشار إلى الجهة المقابلة بحاجبيْه. فطن سامي إلى غفلته عمّا وراءه والتفت، ليقف مبهوتًا ممّا رآه على الجدار المقابل للغرفة الكبيرة.

أوّلُ ما طالعه فوق المكتب الكبير والفخم على الجدار المقابل صورةٌ كبيرةٌ بالأبيض والأسود للرئيس صدّام حسين. رفع الرجلُ الجالس وراء المكتب مشيرًا إليه بأن يتفضّل. اقترب سامي وجلس على المقعد أمام المكتب ونظر على سطحه، فلاحظ مجموعةً من الميداليّات التي صكّها الرئيسُ العراقيّ في مناسبات مختلفة موزّعةً بلا نظام. وعلى زاويةٍ أخرى من المكتب شاهد أعدادًا من الصحف العراقية موشّحةً بصور الرئيس وهو يقوم بزياراتٍ مختلفة. بَهَتَه ما رأى وبقي صامتًا يتطلّع إلى كلّ زاوية من سطح المكتب. ولمّا وجّه نظرَه إلى المركز، ارتاع لمرأى ملفٍّ سميكٍ من الكرتون الأخضر مكتوبٍ عليه اسمُه بالقلم العريض. من أين للمباحث العامّة تقاريرُ عنه يُمْكنها أن تملأ هذا الملفَّ الضخم؟ ذُعر سامي أكثرَ وأكثر: فالقضيّة كما يَظهر جدّيّة، والتحقيقُ طويل، والمحقّقُ متمرّسٌ ويبدو أنه متخصّصٌ بقضايا العراق والعراقيين. «مساء الخير دكتور سامي. أنا الرائد نادر. شكرًا لمجيئك على الموعد.» نظر إليه سامي، فوجده رجلاً مهيبَ الطلّة، يَصْغره بعشرة أعوام على الأقلّ، وعلى وجهه ملامحُ الجدّ. «مساء الخير،» ردّ، «الحقيقة أني ما زلت أجهل سببَ هذا الاستدعاء.» «لا عليكَ،» أجاب الرائد نادر، «إنه إجراءٌ روتينيّ. كلُّ ما أطلبه إليك هو الإجابة على بعض الأسئلة بتفصيلٍ دقيق. وآملُ أن ننتهي من التحقيق سريعًا وأن لا نُضطرّ إلى إجراء جلسةٍ أخرى.»

«جلسة أخرى؟» تساءل سامي، «لماذا؟» وازداد قلقُه. لكنه تمالك نفسَه بما يكفي ليجيب الرائد: «أنا جاهز، تفضّلْ بما تريد من الأسئلة.» ابتدأ الرائد نادر بأن سأله عن اسمه الثلاثيّ، وكان يخربش بيده على ورقٍ أبيض، كالذي يستعمله الباعةُ للفّ بضائعهم، بعضًا من الكلمات بقلم رصاص وبخطٍّ رديءٍ لم يتمكّن سامي من أن يراه. ثم انتقل الرائد إلى سؤاله عن طفولته في بغداد ودراسته الأولى فيها. حاول سامي الإجابة بدقّةٍ كما طلب المحقّقُ منه، وبدأ باستعادة شريط ذكريّاته:

عن بغداد الطفولة، بغداد الخضراءِ الريّانة، بغداد اللاهيةِ التي كانت تتطلّع إلى مستقبلٍ مشرقٍ يدْعمها في تحقيقه ثراءُ النفط الصاعد وحكوماتٌ رأت في تحديث العلم والثقافة والعمران والمجتمع أولويّاتٍ ضروريّة. استعاد بعضًا من ذكريات أبيه الذي درس في إنجلترة وعاد ليؤسّس مشفًى متخصّصًا في أمراض المناطق الحارّة؛ وأمِّهِ ابنةِ العائلة الأرستقراطيّة التي درستْ في مدارس الراهبات وكانت تتقن الفرنسيّةَ والإنجليزيّةَ واللاتينيّةَ وتعزف على البيانو بمهارة؛ وشقيقاته الثلاث اللواتي كنّ يكْبرنه بسنواتٍ قليلة، وأحطنه بعنايةٍ ومحبّةٍ لكونه الشقيقَ الصغيرَ والذكرَ الوحيد؛ وشارعِه المشجّر الواسع؛ والفيلاتِ المبنيّة على طُرزٍ حديثةٍ على ضفّتيْه؛ وأيّام الربيع الجميلة حين كان السكّانُ يتبادلون الزياراتِ المرحةَ والصاخبةَ في حدائقَ أينعتْ بكافّة أنواع الورود والنباتات.

نسي سامي نفسَه واسترسل مع ذكريات طفولته وصباه، إلى أن أوقفه صوتُ الرائد نادر فجأةً قائلاً: «عذرًا على المقاطعة، هل يُمْكنني أن أسألك عن نشاطك السياسيّ في الجامعة في بغداد؟» «أيّ نشاط سياسيّ؟ لم يكن لي أيّ نشاط سياسيّ في الجامعة أو خارجها أو بعدها،» أجاب سامي. «إذنْ، لماذا اعتُقلتَ في سنتك الثالثة؟» «لا لسببٍ محدّد. لعلّي كنتُ في المكان الخطإ واللحظة الخطإ عندما قام النظامُ بإحدى حملاته التطهيريّة في الجامعة؛ أو ربما لأني ابنُ عائلةٍ ارستقراطيّةٍ تَقلّد بعضُ أفرادها مناصبَ في الحكومات الملكيّة؛ أو لأني كنتُ مهتمّاً بالنقد الفنيّ والثقافيّ وأقرأ كتاباتِ المفكّرين الماركسيين والفلاسفة الألمان.» «وكم قضيتَ في السجن؟» «عشرين يومًا، إذ إنّ أسرتي كان ما يزال لديها بعضُ الصلات بأفرادٍ من السلطة. وخرجتُ لكي أقضي في منزلي شهرًا جمعتُ فيها أغراضي. وبفضل صلات أبي في إنجلترة، التحقتُ بجامعة لندن لدراسة التاريخ، وسافرتُ مع نهاية الشتاء مودّعًا بدمعات أمي وأخواتي وشَدّةِ يدٍ واثقةٍ من أبي. ولم أعد إلى بغداد بعدها قطّ.»

توقّع سامي السؤالَ القادم بعد أن لاحظ أنّ حدّةَ صوته ارتفعتْ مع تفوّهه بكلمة «قطّ.» «ولِمَ؟» سأل الرائد نادر وقد بان بعضُ الاهتمام المخابراتيّ في عينيه. «ماذا أقول لكَ يا سيادة الرائد؟ مات أبي بعد سفري بأشهر إثر نوبةٍ قلبيّةٍ مفاجئة، فباعت أمّي بيتَ العائلة الكبير الذي كانت ما تزال تقطنه مع أختي الوحيدة غير المتزوّجة، وانتقلتا إلى بيروت لأنّ جذورَ عائلتها من الجنوب اللبنانيّ، وما زالتا تعيشان هناك اليومَ. أما شقيقتاي الأخريان فتعيش الأولى مع عائلتها في جنوب لندن، وتعيش الثانية في دبي. عائلتي المباشرة كلّها خارج العراق.» «وأنت، ألا تحنّ إلى بغداد؟ إلى أصدقاء الطفولة والصبا؟» «أحنّ إلى بغدادي التي أعرف أنها لم تعد هناك. أما مَن بقي من أصدقاء الصبا فجُلُّهم مُهاجر وألتقيهم في بلاد الغربة.» أراد سامي أن يسترسل في الكلام عن بغداده، ولكنّ الرائد نادر أدار دفّةَ الحديث في اتجاهٍ آخر: «قل لي، لو سمحت، لماذا جئتَ مصرَ في المرّة الأولى؟»

«مصر كانت بالنسبة إلينا في الستينيّات والسبعينيّات منتهى آمال العرب. مصر، بزعيمها وأمِّ كلثومها وكتّابها وممثّليها وفنّانيها، كانت كلَّ ما نأنسُ إليه ونحبّه. فلما عقدتُ العزمَ على دراسة تاريخ مدينةٍ عربيّةٍ لرسالة الدكتوراة، كانت القاهرة هي الخيارَ الطبيعيّ، لأنّ بغداد لم تعد خيارًا ممكنًا.» «وكيف قضيت سنتكَ الأولى هنا؟»

هنا انطلق سامي يصف بتفصيلٍ أدهشه هو نفسه حياتَه وعلاقاتِه ودراساتِه وانغماسَه في حياة القاهرة حتى الثمالة. كان يريد أن يُخبر الرائد نادر بكلّ حادثةٍ وكلّ لقاءٍ وكلّ صديقٍ وكلّ مغامرةٍ عاطفيّةٍ عاشها في القاهرة. ولكنّ الرائد كان قد توقّف عن أخذ الملاحظات، وبدأتْ يدُه تخطّ على الورق دوائرَ وخربشاتٍ لم يحاولْ إخفاءَها، فقاطع سامي وهو في أوج انغماسه في وصف رحلةٍ أغنت حياتَه في القاهرة: «وكيف انتقلتَ للإقامة في الولايات المتحدة؟»

بدأ سامي يخبره عن تعرّفه إلى فتاةٍ أمريكيّةٍ جذّابة في القاهرة، كانت مثلَه في منحةٍ لإتمام دراستها، ولكنها كانت مهتمّةً بالفنون الشعبيّة، وتقضي وقتَها في زيارة الموالد والاحتفالات الدينيّة والمسارح الشعبية وفِرق الرقص التقليديّ. وقد تصاحبا وتحابّا وطافا المدينةَ معًا. وما إن انتهت السنةُ حتى تواعدا على الارتباط. عاد كلٌّ منهما إلى بلده، وأنهى سامي أطروحتَه بسرعةٍ وحصل على تقديرٍ ممتاز، فتقدّم إلى مناصبَ جامعيّةٍ في الولايات المتحدة ليكونَ إلى جانب زوجة المستقبل. وهذا ما حصل، وتزوّجا وعاشا معًا في المدينة الصغيرة على الساحل الشرقيّ، حيث الجامعة التي اختارته ومَنحتْ أوليفيا منصبًا تدريسيّاً. وقضيا سنواتٍ من الجهد الأكاديميّ رائعةً، وأنجبا طفلين، وحصلا على كرسيّ الأستذة في جامعتهما الصغيرة العريقة التي ما زال سامي يدرّس فيها حتى اليوم. «وماذا حصل بعد ذلك؟» سأله الرائد نادر بلهجةٍ بدا فيها شيءٌ من الفضول الإنسانيّ لا المخابراتيّ، وإنْ بانَ الإعياءُ على صوته. «لا أعرف تمامًا،» بدأ سامي الإجابة. وانطلق يحلّل كيف انهارت علاقتُه بأوليفيا على مهل وانتهت من دون أيّ مشاجراتٍ أو ميلودراما. حزمتْ حقائبَها وغادرتْ مع الولدين ذاتَ صباحٍ صيفيّ بعد انتهاء السنة الدراسيّة. وأرسلت استقالتَها من الجامعة بالبريد، وحصلتْ على عملٍ جديدٍ: مديرةً لمسرحٍ تجريبيّ على الساحل الغربيّ.

أراد سامي الاسترسالَ بعد أن لاحظ في دخيلة نفسه أنّ هذه هي المرة الأولى التي يروي فيها قصةَ انفصاله عن أوليڤيا لأحد؛ فلا زملاءُ الجامعة رغبوا في معرفة رأيه، ولا أفرادُ أسرته أنفسهم، لأنّ الكل كان يظنّ أنّ أوليڤيا متطلّبةٌ ومندفعةٌ وفوّارةُ العواطف أكثرَ ممّا ينبغي، وهو ما لم يتلاءم يومًا مع هدوئه وانزوائه وتحكيمه العقلَ في كلّ المواقف. ولكنهم كلهم مخطئون: فهو كان يحبّ أوليڤيا والولدين، وهو كان يرغب دومًا في قضاء مزيدٍ من الوقت معهم، وهو...

فجأةً لاحظ سامي بطرف عينه أنّ الرائد نادر كان يتثاءب باستمرار في الدقائق الأخيرة، وأنّ عينيه بدأتا بالتراخي، فتوقّف عن الكلام. ولم ينتبه الرائد نادر إلى هذا إلاّ بعد وهلة، فرفع رأسَه ولاحظ أنّ سامي يَرْقبه متلهّفًا، وأنّ عينيه تلمعان لمعةَ مَن تمكّن أخيرًا من فهم نفسه وفكّ بعض طلاسمها. نظر إليه برهةً من دون أن يرتسمَ أيُّ تعبيرٍ على وجهه، ثم استعاد هيبتَه وقال بصوتٍ حاول أن ينفخَ فيه بعضَ القوة: «أظنّ أنّ هذا كلُّ ما أردتُ أن أسألكَ عنه. وقد تأخّر الوقت، وأنا آسف لذلك. يمكنك الذهاب. ولو احتجتُ استفسارًا آخر، فسأتصلُ بك.»

«انتهى البوح؟» فكّر سامي لنفسه، «وأنا كنتُ قد بدأتُ أستسيغه.» ولكنه تذكّر أنه في مكتب ضابط مباحث. وحانت منه التفاتةٌ إلى ساعة الحائط، فلاحظ أنّ عقاربَها قد قاربت الرابعةَ صباحًا، أيْ إنّه أمضى في مكتب الرائد نادر خمسَ ساعاتٍ يتحدّث عن حياته! فقام من مقعده ومدّ يدَه ليحيّي الرائد عبر المكتب. لم يكن الرائد مستعدّاً للحركة، فحاول ـ في وقت واحد ـ أن ينهض وأن يدسَّ قطعة الورق التي كان يخربش عليها. فطرقتْ يدُه رزمةَ الورق داخل الملفّ، فتبعثرتْ على سطح المكتب. كانت كلُّها بيضاءَ، لا كتابةَ عليها، مقصوصةً باليد، وموضوعةً في رزمةٍ تحت ما بدا لسامي أنه نسخةٌ من طلبه الحصولَ على منحة معهد البحوث الأمريكيّ التي كان أرسلها بالبريد منذ أشهر، ولا شيء غيرها. نظر سامي إلى الأوراق البيضاء، ثم رفع عينيه إلى عينَي الرائد نادر متسائلاً. لم يقل الرائد نادر، الذي بدا قصيرًا وسمينًا بعدما وقف، أيَّ شيء، بل مدّ يدَه مصافحًا كمن يداري خجلَه، وقال بصوتٍ حاول أن يجعله واثقًا: «هاك بطاقتي الخاصّة مع رقمي الخاصّ هنا في المكتب. إنْ وقعتَ في ورطةٍ خلال إقامتك في القاهرة فلا تتردّدْ في الاتصال بي.» قبض سامي على يد الرائد نادر، وهزّها مرارًا، ولكنه لم يقل سوى «شكرًا» مراتٍ عديدةً. رفع رأسَه إلى صورة صدّام حسين، فغمزه بطرف عينه. ثم التفت وخرج.

❖ ❖ ❖

كان أوّلَ ما طالعه عند خروجه من مبنى المباحث انبلاجُ الفجر فوق القاهرة. خطوطٌ من النار متوردّةٌ تزيح الغطاءَ الكالحَ الثقيلَ عن كاهل المدينة. شعر سامي أنّ فجرًا جديدًا يبزغ في داخله أيضًا بعد أن اكتشف أنّ ذكرياته في بغداد ولندن ومع أوليڤيا والولديْن تضفي على قلبه الحبورَ والدعة، وأنها ليست ذكرياتٍ حزينةً كما توهّم في السنين الأخيرة من العزلة والانطواء. سار باتجاه الزمالك بخطوٍ جديد: واثقًا ومتحفّزًا لإمساكِ الحياةِ من قرنيْها. وفي قلبه شكَرَ الرائد نادر، طبيبَهُ النفسيَّ في المباحث العامّة.

كامبريدج (ماساتشوستس)